The Nature of Criticism in Abu Al-Ala Al-Ma'arri's Literature

Abdulrahman Hameed Thamer
Department of Arabic Language, College of Education, Al-Ma'arif University, Ramadi, Iraq

KEYWORDS: **Al-Ma'arri, Nature of criticism, Rulers, Society, Critical opinions.**

https://doi.org/10.51345/.v36i1.1052.g514

ABSTRACT:

In order to convey the truth and fulfill the saying of the scholars and philosophers that "the poet of the philosophers is the father of eloquence," confusion has arisen among people, both in ancient and modern times. They narrated stories about him, believing and disbelieving in them. Thus, this research emerged. In the field of criticism, they said that he spreads his rulings across society, wants to reform the people, exposes their flaws, and confronts them with their faults. They also claimed that his ideas are coercive, implying that reform cannot happen without criticizing prevailing opinions and systems. Through this, and with God's grace, we were able to defend this literary figure, presenting examples of his criticism in various fields. We aimed to prove that his ideas form a natural state of critique of the prevailing social circumstances, the oppression of rulers, and the injustice of society's dominant opinions. His message was humanistic, aspiring for a better world and calling for noble morals. He represents a personality that imposes its authority on people when they feel distant from self-discipline. His desire for reform is evident in his messages, though he leaves their interpretation to the people themselves.

طبيعة النقد في أدب أبي العلاء المعري

أ.م.د. عبدالرحمن حميد ثامر
قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة المعارف، الرمادي، العراق

الكلمات المفتاحية | المعري، طبيعة النقد، الحكّام، المجتمع، الآراء النقدية.
https://doi.org/10.51345/.v36i1.1052.g514

الملخص:

من أجلِ أن نُنصف القول، ونوفي الحق لأديب عدَّه العلماء شاعر الفلاسفة، هو أبو العلاء المعري، اذ اختلط أمره على الناس قديماً وحديثاً، وقالوا عَنه حكايات في اعتقاده ونقده، فكان هذا البحث.

وفي مجال النقد قالوا عنه: أنه يتسرَّع في احكامه على المجتمع، ويريد أن ينتقم من الناس، ويسجل مخازيهم ويفضح امرهم، والتعريض بهم. وإن أفكاره مضطربة، وإنه من أجل ذلك يعمد للتنفيس عن أَزماته وأنهزاميته.

وتجاه ذلك تمكّنا – بفضل الله – الدفاع عن هذا الأديب واستعراض نماذج من نقده في المجالات المختلفة، لنثبت أَن نقذه يُشكّل حالة طبِ يعية، قياساً للأوضاع السائدة في المجتمع، وظلم الحكّام، وفساد هذه الأوضاع.

وكانت، له رسالة إنسانية، وتمنى لهذا العالم الخير، ودعا للأخلاق الطيبة، تمثل أمنياته في مجتمع فاضل، وحتى إذا شعرنا بسخطه على الناس فهو بقصد التأديب، ورغبته في الإصلاح، أما التنفيذ فأمره متروك للناس أنفسهم.

المقدمة:

المعري رفض الدَّنيا وما سلم، وتعرَّض للظلم، واقتحموا عزلته، ويبعثون له الخطابات، يجادلونه في عزلته وزهده، وهو يحاول دفعهم بالحسنى. (الحموي: 169).

والناس قديماً وحديثاً مختلفون في أمره، وتعرض للمدح والقدح. فيقول عن نفسه: (انا شيخ مكذوب عليه) (المعري شروح السقط: 5/1).

وفعلاً تقصّده أهل الحسد، وكان هناك من يعمل على لسانه الأشعار يضمّونها أقاويل الملاحدة، قصداً لهلاكه (الحموي: 67).

ومن جملة الهجمات الكثيرة التي تعرض اليها كانت حول نقده، مع انهم تتبعوا كتاباته على وجه الانتقاد فوجدوها خالية من الزيغ والفساد، فسلكوا مسالك الكذب والافتراء عليه.

فكان الهدف من بحثنا ان ننصف الرجل بعد ألف عام تقريباً، وندافع عن كتاباته ونسوق الدليل من نماذج في أدبه، وندفع الظلم عنه، وهو القائل:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إني أخاف عليكم أن تلتقوا

خطة البحث:

تجاوزنا التعريف بحياته وثقافته لكثرة ما كتب عنه.

ويتضمن البحث ثلاثة مباحث:

الأول: الآراء السلبية حول النقد عند المعري ونماذج من نقده.

الثاني: الأوضاع السائدة وأثرها في طبيعة النقد عند المعري.

الثالث: الآراء التي تؤيد توجهات النقد وتنصف المعري وحالات النقد الطبيعية.

ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: الآراء السلبية حول النقد عند المعري ونماذج من نقده:

اولاً: الآراء:

1. إنه يتسرع في أحكامه على المجتمع، ولا يفكر الا بلؤم الناس (فاخوري – 1985: 85/2).
2. إنه أساء الظن بكل شيء عند الناس وتقاليدهم. (الطباع:18).
3. وإنه شخصيته قلقة، تؤثر على طبيعة نقده، وتَظهر بلبلة أفكاره، وتنقصه الجرأة. (المازني – 1944: 351).
4. وإنه يريد أن ينتقم من الناس ويسجل مخازيهم ويفضحهم. (مبارك – 1938: ج 46/ 892).
5. يريد النكاية والتعريض بهم من خلال اللهو والعبث (العلايلي. 1944 – 3).
6. وإنه يعمد لذلك من أجل التنفيس عن ازماته (زاهد – 1989: 26).
7. مواقفه تمثل انهزامية من العمل السياسي أو غيره (أمين – 1969: 96)
8. وقد أخطأ في أسلوبه لغرض الإصلاح لان لغته معقدَّة (المحاسني – 1947: 56).
9. اراؤه كثيراً ما يصاحبها التساؤل، وغالباً ما تكون نعي للعالمين على ظلمهم وتنافرهم. (العقاد – د. ت: 10).
10. ان المعري شاعر متمرد (جبران خليل جبران، 1938، الهلال: 46/ 887).
11. تعرض لمسائل لها مساس في العقيدة، فتثار عليه الشبهات و(لم يمتنع عن انكار شيء من احكام الشريعة، والاعتراض عليها) (طه حسين 1937: 292).
12. وآراء أخرى مفادها أن أحكامه قاسية، أكثر مما ينبغي ولا سيما عندما يطلق احكامه دون تقييد، وبأسلوب غامض، كان مبعث التهم له، وإن نقده غير مبرمج، ويصدر احكامه من سجنه بطريقة

عفوية، وهو لم ينتم لحزب معين، أو طائفة معينة حتى تتبنى أفكاره، وعندما يصاب بالإحباط يكون كلامه هجومياً الامر الذي دعاه الى تأليف كتابه زجر النابح يوضح القصد في أقواله مثار الشبهة...

ثانياً: نماذج من النقد في ادب المعري:

نقده للحكام والمسؤولين:

عندما ينتقد الحاكم، لأنه يريد منه ان يكون انسانا يتَّسم بالأخلاق قبل الملوكية، وان يشرف هو الكرسي والتاج والمسؤولية، قبل ان يعدها شرفاً له، أو مغنماً شخصياً. لأنه يعتقد ان هذا الحاكم هو من البشر، وانه سيرحل عن الدنيا ويترك المنصب وكل شيء.

لذلك فمنذ البدء يريد منه ان تحدّثه نفسه بترك الحكم وعدم الرغبة فيه لاتقاء الشر وإقصاء حاسديه. فيقول:

يسود الفتى كارها قومه ويأمره اللبُّ ان لا يسودا
فان خمولك درع عليك وقيت بها غائبا أو حسودا

(المعري: 360/1)

ويتصدى للحكّام الّذين يصلون الى الحكم بالظّلم والاستيلاء على مقاليد الأمور، ولا تهمهم الا مصالحهم الشخصية والبقاء في الحكم، ويعدّون أنفسهم من الساسة فعلاً، ولكنهم على ضوء حماقاتهم في الإدارة، فالمعري يرى انه لا عقل لهم:

يسوسون الأمور بغير عقل فينفُذ أمرهم ويقال ساسة
فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رئاسته خساسة

(المعري: 35/2)

إن هؤلاء الحكام ينظرون الى الرعية كأنهم عبيد، وكثيراً ما ينبه الناس على كذب هؤلاء الحكام وظلمهم والاستحواذ على الأموال بلا رحمة، فيهجم على الحكّام ومساعديهم لا يستثني منهم احداً. لأن هذه الأوضاع تؤدي الى ضعف الانتماء عند الناس لوطنهم.

والمعري عندما أسقط عن الحاكم طبيعة التشريف، وأسقط الفائدة الشخصية، ليكون خادما للشعب من غير تسلّط أو ظلم، حتى يستجيب الناس له وينقادون اليه.

فالحاكم وظيفته تنفيذية محكومة بالحدود الشرعية (ابن ابي الربيع 1987: 183)، من اجل مصلحة البلاد والعباد، وهي أمانة (محمد فاروق النبهان 1987: 39 – 40) ومثلّه كالقلب للجسم (ابن الجوزي 1978: 62) فيقول المعري (وأمير القوم للقوم خادم) (المعري: 389/2).

فهو يتعرض للحكّام الظلمة الذين يعملون أشياء ليس من صالح المواطن، ومع ذلك يحمّلون الناس المنَّة، بينما هم اساساً من الخدم للشعب. لكن الشعب يبدو انه تعوَّد ذلك وقبلَه فيقول أبو العلاءَ:

ملَّ المقام فكم أعاشر أمـــــةً أمرت بغيِر صلاحها امـــراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدّوا مصالحها وهم اجـــراؤها

انه كلام قوي مؤثر، جعل كثير من النقاد يحملونه على مفاهيم مختلفة.

فـ طه حسين: عدّه مثل الجمهوريين في أوروبا (طه حسين 1937: 303 – 304) بينما زكي محاسني عدّها تمثل الديمقراطية الفرنسية (المحاسني 1943: 55) وذهب د. عبدالقادر زيدان انها الشورى الإسلامية (زيدان: 1986: 261) وقال عطا بكري: انه انموذجاً لا يفهمه الا اليونان (بكري: 1980: 64).

وكل هذا لا يحتمله البيتان، فمثل هذه الابيات كثيرة في شعر المعري، وانما هو يتألم لحالة الناس المتردية، بينما الحكّام لا تهمهم مصالح الناس وقد أخذوا الحكم ظلماً، بينما الرأي والتدبير هما أمران جعلهما الله الى ولاة الامر وليس للناس (الجابري 1994: 348).

فالنقد الذي يتبناه المعري ضد الحكام هو يمثّل الدفاع عن معاناة الرعية من هؤلاء الحكام الظَّلمة، وليس بهدف شخصي فيقول: (لست ممن يطلب جائزة على قول الحق) (المعري – الصاهل والشاحج: 202).

وزيادة على ذلك فالحاكم ينبغي أن يكون أفضل من الرعية بعيداً عن المقولة (إن العامة على دين السلطان) (الجاحظ – البيان والتبيين: 358/4).

لذلك فالمعري يضع شروطاً للحاكم: أولاً أن لا يتبع أساليب غير شريفة للوصول الى الحكم، كتوزيعه الأموال لشراء موافقتهم أو بالتهديد فيقول:

فلا تشهرن سيفاً لتطلب دولة فأفضل ما نلت اليسير المروج

(المعري: 254/1)

وينتقد القاب الحكام:

لم أرض رأي ولاة قوم لقّبوا ملكاً بمقتدّر وآخر قاهـــــرا
هذه صفات الله جل جلاله فالحق بمن هجر الغواة مظاهرا

(المعري: 510/1)

ولا يرضى بالتكبر فيقول: (وكل متكبر مقيت) (المعري – الصاهل: 166).

إن وجهة نظر المعري تجاه الحق يريد الذي ينبغي ان يكون، وهو لا يريد ان يمثل المعارضة ويقود الجماهير ضد الحاكم! لأنه يرى ان المحكومين، هم ليس بأفضل من الحاكمين، والكل متساوية فيقول:

إن جارت الأُمراء جاء مؤمر اعتى وأجور يستظيم ويكلم

(المعري: 405/2)

الوزراء:

نظر إليهم منذ البداية بأنهم من المنافقين لحكامهم:

هل الأُمراء إلا في خسارٍ أو الوزراء الا أهل وزر؟

(المعري: 550/1)

القضاة:

لقد تأثر القضاة بالوضع المتردّي للحكام وتدخَّلوا ليحملوا القضاة على الحكم والافتاء وفق مصالحهم (النبهان: 1987: 81). في وقت كثر الجدل وانتشار الفرق، وتعدّد المذاهب، ومع ذلك لا يستحي العدل فيقول المعري:

أما استحى العدلُ وأخباره سيئة في أُذن السامعِ

(المعري: 143/2)

ولشدة الفساد لا فرق بين القضاة وبين اللصوص. ولا يريد تشويه صورة القضاة لمجرد النقد فيقول: (اعوذ بالله أن أعرض في حكم) (مارجليوت 1898: 116).

وهنا تبدو طبيعة النقد قاسية فعلاً، ولماذا لا تكون كذلك؟ فمن يدافع عن هذه الرعية؟ وهذه رد الفعل الطبيعية.

الحاجب: وهو الذي ينظّم المقابلات وغيرها من الأمور، وربما تجاوزت ذلك في بعض المهام، ولكن ربما يحصل التجاوز الى صلاحيات أكثر، فتحصل بعض الأمور ليس من صالح الرعية فيقول:

ما لي أرى الملكَ المحبوب يمنعه ان يفعل الخير مناعٌ وحجاب؟

(المعري: 95/1)

النقد في مجال الدين:

للدين أثره في تنظيم الحياة، وتغيير السلوك، وتوضيح القيم الأخلاقية. (الجابري: 1994: 259) بينما الفساد الذي انتشر في البلاد، أثر في الحياة الدينية، وسبب الصراع بين الطوائف، وحصل الصراع، وكفَّر بعضهم بعضا (ابن قتيبة: 5) وابن الجوزي فصَّل ذلك في كتابه (المنتظم: 237/7) فتصدى أبو العلاء للمتطرفين والمتاجرين

في الدين فيقول: (وافتنَّ الناس بالضلالة حتى استجازوا دعوة الربوبية) (الغفران: 441) في الوقت الذي انتشرت فيه الخرافات والجهل فيقول:

ما للأنام؟ وجدتهم من جهلهم بالدين اشباهَ النَّعام أو النَّعم

(المعري: 543/1)

والمعري انسان مطلع على الديانات والمذاهب، وخبر الناس فلا يعتدُّ بالكلام، وإذا لم يغير الدين اخلاق الناس نحو الأفضل فما الفائدة؟

إذا تساوى في القبيح فعالنا فمن التقي وايُّنا الكفار؟

(المعري: 464/1)

ويقول: "نطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الانسان" (المعري: الغفران: 419). ويقول: (هم في الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون) (المعري: 419).

وكان هجومه عنيفاً عن الذين يتاجرون في الدين أو يتخذون الدين ستاراً، فيقول:

وليس عندهم دين ولا نسك فلا تغرك ايد تحمل السُّبحا

(المعري: 292/1)

ولكنه يستثنى الأزكياء البررة فيقول: (ولن يعدم المسلمون أزكياء برزة) (مارجليوت: 88) لأن المعري لا يقصد في نقده ذم الديانات، وإنما الذين يتاجرون بها لأهداف شخصية (تيمور: 194: 125). أو أخلاقهم تناقض ديانتهم فيقول:

تسير الى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بائس وخدين

(المعري: 498/2)

فلماذا يقدم على الحج مثل هذا الانموذج، والأخلاق مع الجار مقدسة، والأخلاق روح العبادة. ولا بد من مطابقة المظهر والجوهر بسلامة القلب، والابتعاد عن الرياء والسمعة فيقول:

لا تقومنَّ في المسا جد ترجو بها الزُّلف
معمــلاً بسط راحتيـ ك الى نائل يـــلف

(المعري: 173/1)

ومثل هذه الاشعار كثيرة في شعره، وهو يدعو الى التخلص من النفاق فيقول: (واعلم ان صلاة المنافق صلاءُ النار) (المعري – الفصول: 28).

لذلك يوجه نقده الى الدعاة الذين يدعون الى زعيم، أو مذهب معين، فهم لا يبتغون وجه الله. (ان الدعاة بسعيها تتكسَّب) (المعري: 106/1).

بينما المعري يتحرك وجدانه وضميره تجاه القيم يريد ان يكون المتدين رمزاً للتقوى فيتحول للنهب والعدوان.

الفقهاء:

وهم ايضاً في تلك الأجواء المضطربة، ولعل البعض منهم يكون سبباً في التمزق والشقاق فيقول:

والنسكَ لا نَسكَ موجود فنبغيه فَعَدّ عن فقهاء اللفظ مرَّاق

(المعري: 208/2)

فالمذهب هو تظاهر فقط والهدف كما يراه المعري هو: "يتوصل به الى الدنيا الفانية" (المعري – غفران: 461).

واستمر في رصد الواقع المتخلف لما يرافق الدين من خرافات وتنجيم وشعوذة وضلال ومشاحنات التي أشار اليها الشهرستاني في الملل والنحل (الشهرستاني: 16/2). ولان ابا العلاء كان يخضع احكامه للعقل، فيكشف الخلل والفساد دائماً.

الخطباء والوعاظ:

يرى المعري ان: (قول الحق زكاة اللسان) (المعري – الفصول: 663) وفي زمنه انتهت اليه مرحلة القمة في الشعر العربي، وبرز الخطباء، وفي معرض كلامه عنهم يقول:

وخطيباً لو قام بين وحوشٍ علّم الضاريات بر النّقاد[1]

أي لو قدر الخطيب ان يكون مع حسن النوايا، والسحر الحلال في كلامه فان ذلك يؤدي الى العلاقات الإنسانية الحميمة، ولتعاون الناس على خدمة المجتمع، لتأثير الكلام فيهم عندما يكون الخطيب صادقاً ويخرج الكلام من قلبه حتى السباع المتوحشة لا تعتدي على الغنم.

والناس على دين السلطان، كيفما يولى عليكم تكونوا، فأي موعظة تنفع مع هؤلاء الذين استشرى بينهم الفساد؟

يوفي على المنبر العالي خطيبهم وانما يعظ الاساد والنُّمرا

(المعري: 496/1)

فكيف إذا كان الخطيب يقول ما لا يفعل؟

يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساءً

(المعري: 61/1)

بينما لم يتعرض لمن حسنت سريرتهم وزكت اخلاقهم السالكين في طريق الله، فهو يعرض صفات الزهد والاستقامة. هؤلاء غير الذين يصافحون الحكّام الظلمة، في خطبة الجمعة فيقول ناقداً لهم:

يدعون في جمعاتهم بسفاهة لأميرهم فيكاد يبكي المنبر

(المعري: 445/1)

الشعراء:

ومع انه شاعر ولكن تصدى للشعراء:

بني الآداب غرتكم قديماً زخارفُ مثلِ زمـــزمة الدُّباب
وما شعراؤكم إلا ذئــاب تلصص في المدائحِ والسباب

(المعري: 165/1)

ويستشهد بنماذج كثيرة على مبالغات الشعراء قديماً وحديثاً في المديح والنفاق كقول الشاعر ابن القاضي:

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

(المعري – غفران: 461)

وله عبارة: (غير صادق في المدح) يكررها في نقده للشعراء الذين يبالغون في المديح.

المبحث الثاني: الأوضاع السائدة وأثرها في طبيعة النقد عند المعري

بعد المتابعة الدقيقة والتقصي الشامل لأدب المعري وما تيسر لنا من مصادر لها علاقة. اتضح انه تأثر بسوء الأحوال السائدة في البلاد، بسبب الحكّام الفاسدين وما تركوه من أزمات اقتصادية خانقة، جعلت الناس يأكلون لحوم البشر، والجيف والميتة. وكان الناس يموتون جوعاً في الشوارع (ابن الجوزي 120/7) بل ان قسماً من الناس يقتلون أولادهم تخلصاً من ألم رؤيتهم يموتون جوعاً (ابن كثير – 213/11). بينما الحكام يستعينون بالأعداء لمحاربة بعضهم بعضاً.

وفي حلب والمعرة موطن المعري، تقلّبت عليها سلسلة من الاهوال والفتن تركت أثراً عميقاً في نفسه (انيس المقدسي – 1938 – ج46: 962).

وتجدر الإشارة الى ان المعري يستقبل طلبته وزواره في سجنه، ولا نعدم أشخاصاً يخلصون له، وينقلون له الأخبار عن المجتمع، وهم في دورهم يتألمون ايضاً، لأن عوامل الفساد في ازدياد وتدهور مستمر (مصطفى الشكعة – 1986: 171).

وأبو العلاء لحقه الكثير من ظلم المجتمع، فاتهموه بالكفر والزندقة في الوقت الذي كان يتأمل كمثل الفلاسفة، ان يعيش المجتمع في مدينة فاضلة، ولكن الحكّام الظلمة من الطغاة والبغاة هم الذين يسيطرون على المجتمع، فتصدّى لهم أبو العلاء جميعاً حتى شمل نفسه:

وقد غلّب الاحياء في كل وجهة هواهم وان كانوا غطارفة غلبا
كلاب تغــاوت أو تعاوت لجيفة واحسبني أصبحت الامها كلبا

(اللزوميات: 114/1)

وهو في الأساس يرى ان الشر وفساد الطبيعة غريزة في الانسان، وهذا الأصل في سلوكه، أما إذا اتسم الانسان بالأخلاق الفاضلة، فهو استثناء:

ان مازت الناس اخلاق يعاش بها فانهم عند سوء الطبع أسواء

(المعري اللزوميات: 48/1)

والرعية تتحمل المسؤولية لأنها تبدي الرضا عن الحكّام "فهم لا يخضعون على كره منهم، ولكنهم يخضعون لأنهم يؤمنون إيمان الحاكمين، ويفكرون تفكيرهم، ويريدون مرادهم ويفرحون بعظمتهم كأنها عظمة لهم فيها نصيب" (طه حسين: 57) وفي الوقت نفسه يرى ان هؤلاء الناس لا يرضون عن الحاكم مهما عمل.

وطبيعة المجتمع هو علاقة بين الافراد (د. محمد جواد 1993: 21) ونظمه مترابطة ومتكاملة (مصطفى الخشاب 1968: 119).

الا ان المعري ترك المجتمع والاختلاط بالناس وسجن نفسه، وأصبح لا يستسيغ افعالهم وسلوكياتهم وهو بالنتيجة غير راض عنهم. فقد أصبحت طبقية في المجتمع، ومن المظالم ان يعيش الوضيع بالنعيم والخلوق في الحرمان، وهناك من يقاسي من البرد، وآخرون بالدفء:

لقد جاءنا هذا الشتاء وتــحته فقير معرى أو أمـــير مدوج
وقد يرزق المجدود اقوات أمة ويحرم قوتاً واحداً وهو احوج[2]

(المعري، لزوميات: 253/1)

هذه الطبقية الاجتماعية جعلت التفاوت الكبير بين افراد المجتمع، فعوام الناس في الحرمان، وافراد الطبقة العليا في العيش الرغيد واللهو، ولا يشعرون بمعاناة الناس (أبو حيان التوحيدي: 344/6).

ولعل هذا التفاوت بين الناس أكثر ما يؤلم المعري (د. عبدالقادر زيدان 1986: 256) فقد عرف بتألمه من الأوضاع المتخلفة، ويشعر بمعاناة الناس، ويعدُّ الرعية التي تقبل بهذه الوضعية بمنزلة الحمير:

وإنما سائسكم دائب ير عى المطايا ويسوق الحمير

وتصدى للنفاق الذي انتشر في المجتمع ولا يزكي نفسه:

انافق في الحياة كفعل غيري وكل الناس شأنهم النفاق

(المعري/ اللزوميات: 184/2)

وإزاء هذا الظلم وهذه المخازي قد تباع النساء الجميلات فحال لسانه يقول:

فما لي لا أقول ولي لسانٌ وقد نطق الزمان بلا لسان
وبيعت بالفلوس لكل خزي وجوهٌ كالدنانير الحســـان

في الوقت الذي يتمنى ان يعيش الناس بسلام، لذلك فهو يشجع على السلم فيقول: "ما تصنع أيها الانسان بالسِّنان؟ ليستيقظ جفنك في تقوى الله ويهجع نصلك في القراب" (المعري/ الفصول والغايات/ 62) وهو يدمج نفسه إدماجاً مع المجتمع في كل شيء حتى يكون النقد من اجل النقد:

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً تجاهلت حتى ظنَّ اني جاهل

(المعري/ السقط/528/2)

فما الفائدة من التعليم وقد كثر هذا الجهل في هذا المجتمع المتردي. فكيف له ان يحمد إحساسه بشرور العصر ويدير ظهره الى فساد المجتمع (بنت الشاطئ – 1956: 191) ولعل سخطه على الأوضاع الفاسدة هو أول دوافع النقد لديه.

المبحث الثالث: الآراء التي تؤيد توجهات النقد وتنصف المعري

اولاً: الآراء:

1. ان فكر المعري مزيج من أفكار العلماء من اليونان والفرس والهند، لأنه اطلع عليها وأمدته في تشكيل الرؤيا في الآراء التي كان يطلقها.
2. يصفه المستشرق غولد تسهير: بالمفكر الحر، وهذه السمة تقترب من التوجه العلمي أكثر من الأدبي. (مصطفى صالح: كشاف: 1978: 146).
3. يعدّه الدكتور منصور عبدالرحمن من أعلم المدارس النقدية في مجال الانتفاع من النص الأدبي، بروح العلم ومقياس الصحة (عبدالرحمن 1977: 150).
4. ان سمة نقد المعري اما خيالية كما في رسالة الغفران وأما فلسفية دينية أدبية كما في عبث الوليد ومعجز احمد (احمد امين – 1952: 451/2).
5. صاحب فلسفة في تشكيل الحياة وتوجيهها، مثله مثل تيولوستوي (آدم 1960: 1/ 136 – 137).

ثانياً: حالات النقد الطبيعية عند المعري

كانت للمعري رسالة إنسانية وتمنى أن يتبنى المجتمع أفكاره لتحقيق العدالة والتكافل الاجتماعي بين الناس. لكن أدب المعري يحتاج الى من يطبق دراسته، وكلامه يحمل الكثير من الدلالات، وإذا لم يحقق الإصلاح الذي كان يدعو اليه، لأن ما يطرحه يبدو مثاليا، قياساً للواقع المتردي على أيامه، ولأنها دعوة فردية، ربما تكون رياحاً في قفص. الا انها دعوة للحسنى.

وان النظر الى مجمل ما يدعو اليه من خلال نقده فهي آراؤه أما تنفيذ هذه الآراء فهو متروك للناس أنفسهم. وكثير من المصلحين في مجال الدعوة يقتصرون على الكلام، وهم عادة يعتزلون الناس أمثال الكندي (ابن ابي اصيبعة – 1965: 388) وأمثال الفارابي والمعري.

والمطّلع على أدب أبي العلاء المعري يجده يدعو الى الاخلاق الطيبة بشكل عام في جميع المجالات (ادم متز 1967: 138/2) ويريد النصيحة فيقول: "علم ربنا ما علم اني الفت الكلم، آمل رضاه... فهب لي ما ابلغ به رضاك من الكلم" (المعري – الفصول: 62) وكثيراً ما يشير الى امنياته في مجتمع فاضل، ولم يتبع اسلوباً في النقد علمياً أو موضوعياً، زيادة على انه محاط بجهات وأشخاص يتقصدونه، هو يخشى بطشهم، فيتجه الى ما يعرف ببلاغة المقموعين للتعبير، هذه الآراء لا يمكن أن يستسيغها الناس ببساطة، فإن الناس يريدون الذي على شاكلتهم، ولا يرغبون الذي يشير الى عيوبهم "فالأدباء قوم يحلمون، والثورة تعبير وتفسير لأحلامهم" (طه حسين/ 1952: 39).

والمعري يتسم بالعفة والصدق والصراحة زيادة على أنه رقيق القلب رحيمه، حتى اذا شعرنا بسخطه على الناس من خلال النقد، فان ما يقصده هو التأديب ورغبته في الإصلاح (مرحبا – 1870: 584 – 586).

فيقول المعري: "علم ربك أني لا أعيب الا المعيب" (المعري – الفصول: 241).

وكان حساساً له كبرياؤه التي تأبى عليه المصانعة أو المجاملة، فلا يدع المواقف التي يتعرض اليها تمر دون ان تكون له ردة فعل، أو تضعف مقاومته، ولهذا اجمع امره بقراره في سجن نفسه بعد أن عرف أنه لا مكان له في دنيا الناس (بنت الشاطئ – 1965: 111).

وهو يستقرئ الواقع، ويشخص ما فيه من تجاوز على المثاليات، ويتوجه بنقده الذي يمكن ان نعدّه في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وليس من المفيد لنا أن نحلل دخائله، ونوجهها الى التشاؤم أو الحيرة (عبدالقادر زيدان – 1986). زيادة على ان أفكاره النقدية تأثرت بحياته الشخصية، ولا سيما المحن التي تعرض اليها، لان العلاقة وثيقة بين نفس الاديب والنقد (عز الدين إسماعيل 1963: 13).

فضلاً عن ذلك سعة علمه وقوة التفكير التي يمتلكها، وقدرته الكبرى على نقد الآراء، وربما حملته تضحيات وصدامات مع الآخرين وهذا ما يواجهه العلماء المخلصون دائماً. (الكبيسي: 2015)

لكن المعري يريد لهؤلاء الناس الخير، ويتمنى لهم العيش بسلام من غير صراع أو نزاع، هذه الآراء التي كان يطلقها على ضوء ثقافته وفهمه، ولا يلزم الناس باتباعها أو تنفيذها.

لأن النزاع بين البشر يوجد في كل زمان ومكان أينما اجتمعوا فيقول:

واللب حاول ان يهذّب أهله فاذا البرية ام لها تهذيب

(المعري – 106/1)

في الوقت الذي يعلم يقيناً أنَّ الله قادر على أن يوحد الناس فيناجي رب العزة: "ان شئت جمعت طوائف الأرض في أصغر من حلقة الدّرع" (المعري – الفصول: 328).

لهذا فهو يتحفظ في قوله، رغبة منه بعد الصدام فيقول:

وليس على الحقائق كل قولي ولكن فيه أصناف المجاز

(المعري: 630/1)

زيادة على المحن التي تعرض اليها، ومنها العمى وقد تركت ظلالاً معتمة في أدبه والأفكار الواردة فيه، فضلاً عن لغته الصعبة، مع إن الآراء التي يطلقها هي وليدة الظروف والتحولات عبر سنوات عمره التي طالت نسبياً ولم تكن مبرمجة، أو على وفق منهج علمي منظم. وكان يتسم بالتواضع فيقول: "يزعمون أني من أهل العلم، انا منه خلو الا ما شاء الله، ومنزلتي الى الجهال أدنى منها الى الرهط العلماء" (المعري – رسالة الملائكة: 49).

على ان نقده يمثل وجهة نظره، وهو بلا شك يظنها على الصواب:

لو ان كل نفوس الناس رائية كرأي نفسي تناءت عن خزاياها
وطلقوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

(المعري: 619/2)

وكانت هناك من الشبهات التي تثار على المعري في التعرض الى أحكام الشريعة كما ذهب الدكتور طه حسين إذ يقول: "لم يمتنع عن انكار شيء من أحكام الشريعة والاعتراض عليها في انكار الدية وقطع يد السارق" (طه حسين: 1937: 292).

ولكن في حقيقة الأمر ان المعري لم يكن معترضاً وانما في السؤال الانكاري، والتسليم في النهاية لأمر الله لقوله: "وأن نعوذ بمولانا من النار، فالسؤال لأي حكمة تكون الدية في قطع اليد خمسمائة دينار، وإذا سرقت تقطع بربع دينار؟

الا ان الفقهاء أخذو عليه بالإنكار لهذا القول في الظاهر:

تناقض ما لنا الا السكوت له وان نعوذ بمولانا من النار
يد بخمس مئين عسجد فُديت ما بالها قطعت في ربع دينار

(المعري: 544/1)

على انه لا يصح ان نحكم بالكفر على بعض الاقوال وانما الواجب ان نطّلع على جميع ما قاله في هذا الموضوع ثم نحكم بعد ذلك (نديم الجسر – د.ت: 114).

وبعد: يمكن ان نخلص الى القول ان الآراء النقدية لابي العلاء المعري، كانت نتيجة للظروف المحيطة به والتي تصدى لها مبتدأ بنفسه فيقول:

بني الدهر مهلاً إن ذممت فعالكم فاني بنفسي لا محالة ابدأ

على ان النقد يعبر عن شخصية الكاتب ومرآة لعصره (عصفور 1990: 80) وتأسيساً على ما تقدم يمكننا القول ان طبيعة النقد عند المعري طبيعية بعيدة عن الأحكام القاسية التي صدرت بحقه.

الخاتمة:

كانت للمعري وجهات نظر خاصة به، من خلال رؤيته الثقافية، والواقع الذي كان يحيط به، وتوصلنا بعد البحث، وعرض الآراء ومناقشتها. ان طريقة النقد عنده طبيعية كما يراها الناقد المنصف، وصاحب الرأي المتأني والمعتدل. بعيداً عن الاحكام السريعة والقاسية.

فماذا بمقدور المعري ان يفعل، وماذا عساه أن يقول الا الدعوة بالحسنى في بداية الأمر، ثم النصيحة بظهر الغيب، ومن ثم النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، ومن ثم ردة الفعل المطلوبة تجاه الفساد المستشري التي تبدو قاسية لأول وهلة.

وكان الكثير من الأدباء والنقاد يلتمسون له الأعذار، ويقولون عنه: فضله ينطق بسجيته، ويأخذ نفسه بالرياضة والخشونة والقناعة باليسير.

وكانت له مواقفه المشهودة للتصدي للواقع المرير الذي كان في شر منازله ومواقعه، والذي كان يرفضه. في الوقت الذي كان يتمنى مجتمعاً فاضلاً، ويقترب من الدعاة والفلاسفة الذين يتمنون السعادة للبشرية. بينما الخير والشر يرجع الى الإرادة والاختيار. وكان المعري يعلم أنَّ المجتمع المثالي ليس ممكناً، لان البشر ليس بوسعهم ان يحققوا المبادئ المثالية، لكن المعري حاول ان يصور للناس الفضائل المطلوبة نتيجة للمصادر التي امدته بها، مع تأثره بسوء الأحوال المضطربة والتي كانت محل هجومه وتحذيره منها.

هذا الهجوم شمل الاتجاهات الخاطئة، لم يستثن أحداً. فجاءت أحكامه منسجمة مع الأحداث في حينها ولم يجد مسوغاً للخطأ.

لقد كانت له رسالة إنسانية، وتمنى لهذا العالم الخير، وأراد له العدالة، لكنه لم يوفق في تحقيق الإصلاح الذي كان يأمله، لأنها محاولات فردية، وكان يتعامل مع المجتمع على وفق ما يحس به، اما التطبيق والإصلاح الحقيقي فلا يعود للمعري، بقدر ما يعدّ شأن الناس أنفسهم، وكان لا ينتظر ثوابا، ويرى ان ترك الشر واجب وكفى، ومع شعوره المستمر بأزمة المجتمع، استمر بنقده مع عدم رضاه عن مجتمعه الذي لا يعفيه من المسؤولية فهم على دين السلطان.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين.

المصادر والمراجع:

1. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس، عيون الأنباء في طبقات الأدباء. شرح وتحقيق رضا، نزار، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965.
2. ابن أبي الربيع، شهاب الدين أحمد، سلوك المسالك في تدبير الممالك، تحقيق، د. ناجي التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، 1987، ط3.
3. ابن الجوزي، الامام عبدالرحمن، الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء، تحقيق ودراسة فؤاد عبدالمنعم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1978
4. ابن الجوزي، الامام عبدالرحمن، المنتظم في أخبار الأمم، الدار الوطنية، مطبعة التعليم العالي، الموصل، 1990
5. إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، دار المعارف، مصر، 1963.
6. أمين، أحمد، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت. ط5، 1969.
7. باشا، أحمد تيمور، أبو العلاء المعري – نسبه وأخباره – شعره ومعتقده، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1940.
8. بكري، عطا، الفكر الديني عند ابي العلاء المعري، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1980.
9. بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن، أبو العلاء المعري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1965.
10. التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، ضبط وتصحيح أحمد امين، واحد الحزين، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1953.
11. الجابري، محمد عابد، المسألة الثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ط1، 1994.
12. الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، البيان والتبين، تحقيق وشرح حسن السندوبي، المكتبة التجارية، مطبعة الاستقامة، مصر، 1947.
13. الجسر، نديم، د.ت، قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، وتوزيع الدار العربية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3.
14. حسين، طه، تجديد ذكرى أبي العلاء، مطبعة المعارف، مصر، ط3، 1937.
15. حسين، طه، خصام ونقد، دار العلم للملايين، بيروت، 1952.
16. حسين، طه، لجنة إحياء آثار أبي العلاء، شروح السقط، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1945.
17. الحموي، ياقوت، معجم الادباء، دار الشرق، بيروت، د. ت.
18. الخشاب، مصطفى، دراسة المجتمع، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، 1968.
19. الدينيوري، ابن قتيبة، كتاب تأويل مختلف الحديث، دار الكتاب العربي، مطبعة العلوم، بيروت. د. ت.
20. رضا، محمد جواد، العرب والتربية والحضارة – الاختيار الصعب، بيروت، ط3، 1993.
21. زاهد، زهير غازي، لغة الشعر عند المعري – دراسة لغوية فنية – سنقط الزند، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989.
22. زيدان، عبدالقادر، قضايا العصر في ادب العلاء المعري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986.
23. الشكعة، مصطفى، الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت. ط6، 1968.
24. صالح، مصطفى، كشاف مصادر دراسة ابي العلاء المعدي، مطبعة العلم، دمشق، 1978.
25. الطباع، عمر انيس، د. ت، عبقرية الخيال في رسالة الغفران، دار الكشاف، بيروت.
26. عصفور، جابر، المرايا المتجاورة، دراسة في نقد طه حسين، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990.
27. العقاد، عباس محمود، رجعة ابي العلاء، د. ت: دار احياء الكتب العربية، القاهرة.
28. العقاد، عباس محمود، الفصول، د. ت، المكتبة العصرية، بيروت.
29. العلايلي، عبدالله، المعري ذلك المجهول، منشورات الاديب، المطبعة الحديثة، بيروت، 1944.
30. الغلاييني، مصطفى، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، بيروت، ط3، 1996.

31. فاخوري، حنا، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، بيروت، ط1، 1985.
32. الكبيسي، عبدالرحمن حميد ثامر، الفكر السياسي في ادب ابي العلاء المعري، مكتبة المجتمع العربي، الأردن، ط1، 2015.
33. المازني، إبراهيم، مجلة الحديث، عدد 8، 9 القاهرة، 1944.
34. متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، نقله الى العربية محمد عبدالهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1967.
35. مرحبا، محمد عبدالرحمن، مكتبة الفكر الجامعي، بيروت، ط1، 1970.
36. المحاسني، زكي، أبو العلاء ناقد المجتمع، دار الفكر العربي، القاهرة، 1947.
37. المعري، أبو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان، رسائل أبي العلاء – مارجليوت، الطبعة المرسية (الكسندر هورس هارت، مطبعة كلاوندور)، 1898.
38. المعري، أبو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان، رسالة الصاهل والشاحج، تحقيق د. عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، مصر، ط2، 1984.
39. المعري، أبو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان، رسالة الغفران، تحقيق د. عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، بمصر، ط6، 1977.
40. المعري، أبو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان، رسالة الملائكة، اشراف لجنة من العلماء، دار الافاق الجديدة، بيروت، 1978.
41. المعري، أبو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان، زجر النابح، تحقيق د. أمجد الطرابلسي، المطبعة الهاشمية، 1965.
42. المعري، أبو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان، شروح سقط الزند، لجنة إحياء آثار ابي العلاء المعري، اشراف د. طه حسين، تحقيق مجموعة من الأساتذة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1945.
43. المعري، أبو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان، الفصول والغايات، ضبط وتفسير غريبة محمود حسن زناتي، ج1، مطبعة حجازي، القاهرة، ط1، 1978
44. المعري، أبو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان، اللزوميات، دار صادر، بيروت، 1961.
45. النبهان، محمد فاروق، نظام الحكم في الإسلام، جامعة الكويت، 1997.

الهوامش:

(1) النقاد: صغار الغنم. الضاريات السباع

(2) المدوح: لابس الدواج وهو نوع من الثياب يشبه اللحاف من حيث الكثافة.